النقاط الأخيرة ... التافهة

قصة بقلم عبد الهادي بكار

أشعر الان ببعض الهم . **سأقيء** بعد لحظات في غمرة الانفعال الفني مسؤولا أمام انتاج ادبي . **ربما** أمضيت جزءا كبيرا من هذه الليلة في محاولة كتابة قصة او **بحث** . انا يهمني عنوان القصة . كنت مقررا أن يكون عنوان القصة **التي** سأكتبها هو هذا : (أيام تافهة) . كتبت العنوان على ورقة غير هذه التي أكتب عليها الان ـ كنت ساعتها في غرفتي بالاذاعة ـ الا ان موظف قسم الاخبار ما لبث ان سلمني (نشرة الاخبار) الاخيرة لاقرأها على المستمعين وأختم الاذاعة الليلية . وسرعان ما استقرت الورقة الاولى في سلة المهملات وبها فقط هذه الكلمات : (قصة .. أيام تافهة : بقلم عبد الهادي البكار) : كان هذا الجبن والتراجع صورة عن الصلة الواهية التي تربطني بكل الاشياء على وجه العموم .

سهرت الليلة الماضية في حفلة عامة حتى الرابعة صباحا ، وظللت في الفراش حتى الثانية بعد الظهر . لم اكن نائما طيلة هذه المدة ، كنت أتقلب وأكوم بعضي على بعضي ككلب يلسع البرد جلده . كانت الغرفة التي يمتد على أرضها الفراش تقع الى جانب الباب الخارجي . أيقظني رنين الجرس في السادسة ، وكذلك صياح الاولاد الصغار ـ يزعجني صياح الاولاد الصغار ، أشعر أحيانا بالرغبة في تمزيقهم . أحب الاولاد الصغار الهادئين ـ .

اكلت .. ذهبت لصالون الحلاق.. ثم لدار الاذاعة ، ودخلت الغرفة المخصصة للمذيعين . ذهبت للاستوديو ... قرأت ثلاث نشرات للاخبار .. الساعة الثانية عشرة : انتهى الوقت المحدد . أعود الان للبيت . نثرت عددا من المجلات امام قريبتي وأخيها ، بينها مجلة تنشر صورة لي الى جانب رئيس الاركان العامة في احدى الحفلات العسكرية ، ومجلة أخرى لي فيها مقال عن فنان مغمور . تصفح الاثنان المجلات . رأى الاخ صورتي التي أضفت عليها اشارة (×) بقلم الرصاص ـ امعانا في تنبيه القاريء ـ . انتقد هذه الاضافة (×) .. فقط ! لم تر قريبتي لا الصورة ولا المقال . ـ عشت قبل وصولي للبيت لحظات تصورت فيها المجد الزائف الذي سيمنحني اياه الاثنان حين يشاهدان الصورة والمقال ـ .

منذ ايام اشتريت كتاب (اللامنتمي) عنوانه اغراني من قبل ـ قلت ان عنوان الاشياء يهمني ، انه (الوجه المتقدم) للانتاج ـ . قرأت خلال الايام الثلاثة الماضية خمسين صفحة من أصل أربعمئة ، والقصة الأولى من كتاب (السنفونية الناقصة) لصباح محي الدين ، وفصولا قليلة عن الفن والمرأة من كتاب (تحت شمس الفكر) لتوفيق الحكيم . في وقت واحد أقرأ في ثلاثة كتب . قد لا انهي قراءتها . قد اعيرها. قد لا تعود الكتب الي بعد الاعارة. دفعت ثمن هذه الكتب . الثمن نفسه عملت وعرقت وكذبت ونافقت حتى حصلت عليه . انه جزء من راتبي صرفته في شرائها .

هذه اذن نتيجة اولى : صرفت بعض راتبي في شراء الكتب .

الكتب سأعيرها .

هذه اذن نتيجة ثانية : الكتب لن تعود . لن أقرأها . ضاع جزء من راتبي .

أفليست هذه النقطة ، هي النهاية التافهة لعملي وكذبي وعرقي ونفاقي ؟

أفليست هذه التفاصيل هي المحطات الحقيقية التي تمر عليها الشمس في رحلاتها المولدة للاستمرار الكوني ؟ أفليست هذه هي أصابع البيانو التي تؤلف في انخفاضها وارتفاعها ، اللحن العام ؟ . انها تفاهة . الحقيقة أني كنت مقررا ان ادخل كلمة (تفاهة) في عنوان هذه القصة . أحسست من ايام بعيدة بقيمة هذه الكلمة : (التفاهة) ـ ربما لانني تافه . غير أني أشعر بأني لست تافها ، أعيش بعمق وبساطة وطيبة ، عيبي اني صريح وصادق .. وكاذب أحيانا ـ !. كان ذلك في ليلة بدت لي فيها دمشق كعلبة سردين فارغة . رحت وجئت في عدة شوارع وحيدا ، لا اعرف لماذا اروح وأجيء . كنت اشعر بأني اطفو فوق كل المرئيات والمحسوس . كانت أمامي نقطة رئيسية : الصباح . في السادسة تماما يبدأ عملي . في الثانية بعد منتصف الليل دخلت فندق (رامي) . كنت مصمما أن أغسل جسدي بماء ساخن . قيدت اسمي في دفتر الزبائن . صعدت السلم . دخلت الغرفة الباردة . قلت للخادم أن يعد لي حماما بالمياه الساخنة ـ قال لي يصطنع الاسف : ـ لا نسخن المياه في هذا الوقت .

لم اتمكن من الفوز بالشعور بالحزن او الاسف . كانت صلتي برغباتي تلك الليلة صلة واهية ايضا . غرقت في اللامبالاة حين قال لي الخادم :

ـ لا نسخن المياه في هذا الوقت .

تمنيت ان اشعر بالصدمة .. على الاقل . غير أني دخلت الغرفة كحصان كسول يدخل اصطبله بمذلة آخر النهار .

لم استطع ان انام .

خرجت من الفندق . رحت افتش عن بائع (البزر) . اشتريت من أحد المحال التي لا تغلق أجفانها في الليل ، بخمسة قروش فقط . احتقرني البائع على ما بدا عليه . كان يأمل ان (أشتري) منه بخمسة وعشرين قرشا على الاقل . كان يأمل ان (يأخذ) مني خمسة وعشرين قرشا ـ على الوجه الاصح ـ في هذا الهزيع الاخير من العتمة والنعاس والبلادة .

رجعت للفندق . أثرت انتباه عامل التلفون الذي لا ينام الا في الخفاء . في هذا الفندق كان ينام زبائن مختلفون : بينهم مجرم وانسان سيسافر في الصباح وزوج وامرأة سيفترقان بعد ايام . ربما ظن العامل

اني ذهبت من الفندق قبل قليل لابيت امرا ما .. امرا خطيرا ـ دمشق ليلتها كانت تنتظر ميلاد الجمهورية العربية المتحدة ، وتتنبه بدقة لكل الحركات . كان متوقعا ان تحدث مؤامرات مضادة مفاجئة ـ ظهرت الريبة في عينيه فجأة . قال :

ـ أتريد شيئا يا سيدي ؟

أجبته وانا أصعد السلم في تباطؤ :

ـ سلامتك .

قلتها في جفاف وقسوة . أردت ان اشعره بالرهبة مني ، وبالسأم من عمله . سرني جدا ان يسيء الظن بي . تمنيت ان يخال ايضا انني ذهبت من الفندق قبل قليل الى مكان سري رطب ، قبو تحت الارض فيه شمعة هزيلة يجتمع حولها ناس مهمون ، يتحدثون في همس مبالغ . أخفيت قشور (البزر) التافهة .

خلعت ملابسي . تمددت في السرير كالشرنقة أمسكت القلم محاولا كتابة قصة عنوانها (ايام تافهة) ـ كنت أقصد بـ (أيام تافهة) العمر كله ... المبادىء جميعها .. العالم بكل ما فيه من جذور وفروع وشرور .. بكل ما في الكون من أشياء وامجاد . تذكرت فجأة اني هزيل نحيل ـ كانت هناك مرآة كبيرة مثبتة في الحائط تجاه السرير ـ وان النوم صحة وعافية . تركت القلم ، وضغطت الورقة بين أصابعي بامعان ، وكومت بعضي على بعضي محاولا النوم .

تصورت أشياء كثيرة في اللحظة التي وضعت فيها رأسي على الوسادة . تصورت مثلا اني تزوجت ، وطلقت . وتزوجت ولم اطلق ـ انا ليس عندي دار ثابتة واسكن خارج المدينة في قرية أهلها أغبياء ـ قانعا بالاستقرار . وأحببت امرأة عاطفية تخون بسهولة .. وأخرى عقلانية تخون بصعوبة .. ـ انا لا اؤمن بالحب ، تصورت أنه كانت لي علاقة .. صلة واهية شفافة مع كل من الاثنتين ـ غير اني حاولت ان اكون مخلصا لكل منهما ـ الاخلاص عمل صعب . ليس هنالك مخلص بالمعنى الكلي ، ففي الرأس على الاقل امكانية تخيل الخيانة .. ولو تخيلا فقط ! ليست هناك امرأة ترضيني كل الرضى ..

لن اتزوج .

وتصورت أني قررت ان اسافر . ان أرتحل الى اي مكان ، شرط ان يكون السفر بعيدا .. ووسيلة السفر هي الطائرة ـ في لحظة اقلاع الطائرة ينصهر المودعون والمودعون الى كتل من العواطف الصادقة الطيبة ـ غير اني أحب امي وأبي . تخيلت امي باكية ، وابي يجهش بصمته المرهق : المطار بارد كالح . الارض الرمادية . المدفأة في ردهة الاستراحة يصطلي نارها . الساعة دنت للرحيل . تحركت الطائرة . ضمتني امي الى صدرها باصرار ووحشية . بكيت وأجهشت مثل الاطفال . ازداد هدير الطائرة . المنادي يدعو الركاب للصعود بصوت مخنوق . أبي يبتسم في وجهي بحيرة وأسى ورجاء . عقرب الثواني الاحمر يدور كأعمى متثاقل القلب . الزمن .. الموت .. الموت .. الموت .. ليس هنالك عالم آخر ألتقي فيه بأمي وأبي للمرة الثانية . العدم النهائي الرهيب ... أخيرا ، أضم أمي باصرار ووحشية أيضا ، وتطفر عيناي بالدموع الكثيرة .. الساخنة .

الطائرة تقلع .. ركابها ناقصون راكبا .

يقرع الخادم الباب . واستيقظ من الصحو الضبابي :

ـ كم الساعة .

ـ الخامسة والنصف

ذهبت للمرحاض . رميت قشور (البزر) التافهة في العين البلاطية . دفقت فوقها مياها كثيرة صافية . ودارت القشور .. دارت .. دارت .. ولم تعد تظهر على الاطلاق .

دوما **عبد الهادي البكار**

صدر حديثا :

شوبنهور

الكتاب السابع من مجموعة اعلام الفكر

ترجمة : الدكتور احمد كوى

الناشر : دار بيروت للطباعة والنشر